المحاضرة الثانية –أدب الحيوان

أولا– حكايات الحيوان :

هي حكايات ممتعة من حيث القص وجزيلة الفائدة من حيث الأغراض المتوخاة منها ، و الأبعاد التي ترمي إليها. أو هي نسيج درامي غير أن ما يميزه أن الشخصيات القائمة بالأحداث فيه حيوانات، وحتى إن وجدنا شخصيات بشرية في صلب القصة الحيوانية، فهي تقوم عادة بأحداث تشكل قصصا فرعية تثري هذا النوع من القصص.

ثانيا : نشأتها :

تعد القصة على لسان الحيوان أو الخرافة كما يسميها ابن النديم و من نحا نحوه من القدماء من أقدم أنواع القص ، و من الأنماط القصصية الضاربة الجذور في تراثنا السردي العربي ، تعزى فيه الأقوال و الأفعال إلى الحيوان بقصد التهذيب الخلقي و الاصلاح الاجتماعي أو النقد السياسي.

و رأى بعض الباحثين أن نشأة قصص الحيوان ترتبط أصلا بالسياسة ، لأنها تنشأ في عهود الظلم والاستبداد والقهر حينما يكون التصريح سببا في إثارة غضب الملوك و خنقهم، وقد يستدلون على ذلك بأن أشهر كتابها كانوا من العبيد و الأرقاء ، أي من المستضعفين المقهورين ، غير أنه ليس شرطا أن تكون عهود الظلم والاستبداد سببا في وجود هذه القصص أو خلقها، إذ أن كثيرا منها إنما وضع لتسلية و المؤانسة و للموعظة الأخلاقية المجردة ، أو لهدف تربوي تعليمي لا علاقة له بالسياسة ،و يرادفها البعد عن حده الوعظ المباشر وصعوبته على النفس التي تشعر بالاستعلاء والفوقية من قبل الناصح.

وتقول إحدى الباحثات إن حكايات الحيوان ظهرت في الشعر الجاهلي، ثم في أدب الأمثال سواء في كتاب مجمع الأمثال للميداني ، أو في أمثال العرب للمفضل الضبي، وأصبحت بفضل طابع فني خاص قصص حملها أصحابها أبعادا اجتماعية وأخلاقية وسياسية .

ثالثا :كتاب كليلة ودمنة:

على أن كل الأدب القديم عن الحيوان الذي سبق كليلة ودمنة لم يلفت النظر إليه، فما لفت النظر إلى أدب الحيوان هو صدور كليلة ودمنة الذي استقبله المتلقي العربي عند نقله إلى العربية بحفاوة كبيرة ، وكان له عظيم الأثر في تراثنا الأدبي ،فبعده تواترت كتب الحيوان وتنوعت تنوعا عكس ثراء وتنوع الرؤى زوايا النظر.

1-عبد الله بن المقفع :

كان في بادئ أمره مجوسيا فأسلم على يد عيسى ابن محمد عن السفاح ثم اختص بالمنصور و كتب له حتى قتل وهو في مقتبل العمر لم يتجاوز 36 سنة، لكنه خلف آثارا حفظت ذكره قرونا ، ولا تزال أهمها :

2-كتاب كليلة ودمنة :

هو كتاب في إصلاح الأخلاق، وتهذيب النفوس، وضعه فيلسوف هندي اسمه بيدبا منذ ايف و عشرين قرنا لملك من ملوك الهند اسمه دبشليم، ذكروا أنه تولى الهند بعد فتح الإسكندر ،وطغى وبغى فأرادا بيدبا إصلاحه وتدريبه ، فألف هذا الكتاب ، وجعل النصيحة فيه على ألسنة البهائم والطيور على عادة الهنود البراهمة في عصورهم القديمة، فإنهم كانوا يرون الحكمة على ألسنة الحيوانات لاعتقادهم بتناسخ الأرواح[1].

3-موضوعات الكتاب :

ترجع موضوعات النصح في هذا الكتاب إلى ما يحتاج الناس إليه في معاملاتهم :كوجوب الابتعاد عن سماع كلام الساعي، والنمام ، و وخامة عاقبة الأشرار ، ومنافع الأصحاب ، وعدم جواز الأمن من العدو ، وعدم جواز الأمن من كيد العدو ، ومضار الإهمال و الغفلة ، و آفة التعجيل ، وفائدة الحزم ، وعدم الاعتماد على أرباب الحقد ، ونحو ذلك مما يهذب النفوس ، ويرقى العواطف في حكايات يتفرع بعضها عن بعض.[2]

4-أصل كتاب كليلة ودمنة:

يرجع العلماء أصل كتاب كليلة ودمنة إلى الهند ، وهم لا يختلفون في هذا اختلافهم في ألف ليلة وليلة. وهناك رأي في أن ابن المقفع ليس هو مترجم كليلة ودمنة من الفارسية بل هو الذي وضعه ، ولكن هذا الرأي ضعفه علماء كثير، ولم يأخذ به حتى المؤرخون الأقدمون، ولقد دون ابن خلكان (سنة 681هـ) هذا القول على سبيل الرواية . أما البيروني ، و هو من علماء الخامس الهجري ، توفي سنة 1048 ، فأكد أصل كليلة ودمنة الهندي [3] ، وقال إن ابن المقفع زاد عليه باب برزويه . أما الأصل الهندي القديم الذي يشير إليه والذي عنه نقلت الترجمة الفهلويه والترجمة السريانية ، فقد فقد ، ولكن طائفة من هذه الحكايات جمعت في كتابين الواحد هو بنج تنترا ،أي خمسة أبواب. والثاني هو هيتو بادشا ، أي نصيحة الصديق .ويضيف بعضهم أصلا ثالثا يسمونه مها بهارتا .

---

[1]-جورجي زيدان ،تاريخ آداب اللغة العربية ، ج2 ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1993.ص227

[2]-المرجع نفسه ، ص228.ل

[3]-المرجع نفسه ، ص42.

5–نقل كليلة ودمنة إلى اللغة العربية:

المعروف أن ابن المقفع هو الذي نقله من اللغة الفهلوية لأسباب ، قد يكون منها تحلي ابن المقفع بمزايا الأديب الناضج الذي يحسن لغتين جميلتين هما : الفارسية والعربية ، فينتقل من الأولى إلى الثانية أهم آثارها الأدبية الفكرية ، و في مقدمتها كتاب كليلة ودمنة .

ويرى بعض الذين يقرؤون بين السطور أن ابن المقفع أراد أن يعظ المنصور ، وبعض حكام عصره لم يعملوا على إطلاق الحرية السياسية ، بل كانوا يبطشون بقوه وبسرعة ، و بكل من يسيئون به الظن ، فلم يجد أحسن من هذه الوسيلة كتاب كليلة ودمنة ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية ، فلعل هذه الأحاديث الحكمية ، وهذه المواعظ الرشيدة، وهذه الحكايات الطريفة التي يسردها بيدبا الفيلسوف على دبشليم الملك الظالم تفعل فعلها في نفس أبي جعفر وبطانته ،فيخف بطشهم ، و يتروا في أحكامهم ... وقيل أن هناك من نقله إلى اللغة العربية غير ابن المقفع .[4]

6–تسمية الكتاب :

لم يذكر المؤرخون ولا المستشرقون الذين بحثوا في كليلة ودمنة وعددهم غير قليل إن هناك كتابا معروفا بهذا الاسم ، كتابا قائما بذاته سواء في الفهلوية القديمة والسنسكريتية ، وكل ما وجد من أصول هذا الكتاب إلى الوقت الحاضر هو ما تقدم ذكره ، وقد سمي الكتاب كله كليلة ودمنة باسم ابني أوى الذين هما محور القص في الباب الأول ب:اب الأسد والثور .[5]

7–شهرته وترجمته:

اشتهر كليلة و دمنة اشتهارا لا يقل عن اشتهار ألف ليلة وليلة ، وترجم إلى لغات عديدة أذكر منها ، ما يلي – الترجمة التبتية.

– الترجمة الفهلويه، أي الفارسية القديمة وقد ترجمت على زمن كسرى أنو شروان ، وذلك في القرن السادس الميلادي وضاعت كما ذكرنا .

–الترجمة السريانية الأولى.

[4]-المرجع السابق ، ص42.
[5]-المرجع نفسه ،ص42

– الترجمة العربية ، وهي أهم الترجمات لأنها حفظت الكتاب ونقل منها إلى سائر اللغات الحية.

– الترجمة العربية الثانية من الفهلوية إلى العربية لعبد الله بن هلال الأهوازي نقلها يحي بن خالد البرمكي في خلافة المهدي سنة 165 ها .

–الترجمات المنقولة من النسخة العربية لم يبق منها غير الترجمة العربية بين أيدي الناس، وهي ترجمه ابن المقفع وعنها أخذ العالم المتمدن الترجمات الكثيرة الآتي ذكرها :

1–السريانية الثانية ،و اليونانية ، و الفارسية ،و العبرانية الأولى،و العبرانية الثانية ، و اللاتينية ، و الإسبانية و الإنجليزية ، و الروسية ، وتفرع عن هذه الترجمات ترجمات أخرى إلى: الفرنسية ، والايطالية ، وسلافونيه ، والتركية والالمانيه ، والانجليزية، والدنماركية، والهولندية، وغيرها حتى بلغ عدد الترجمات جميعا كلها بضعا و عشرين ترجمة كلها إلى العربية، إما مباشرة أو بواسطة لغة أخرى .

8–قصة الكتاب :

من جميل ما يروى عن ترجمة كليلة ودمنة الفهلوية من اللغة السانسكريتيه الحكاية التالية التي ترويها الشهنامه ، وهذا ملخصها" جاء برزويه الحكيم إلى أنوشروان ، وقال أيها الملك أني قرأت في كتاب هندي أن في جبال الهند عشبا إذا ركب منها دواء فنثر على ميت ارتد حيا. فجهز أنو شروان وسيلة إلى الهند وبعث معه كتابا إلى الملك. فلما أخذ ملك الهند الهدايا ، وقرأ الكتاب جمع العلماء ، و سيرهم مع برزويه لطلب هذا العشب في الجبال فجمعوا كل ضرب من العشب وجربوه فما أحيا ميتا، فندم برزويه على ما جشم من مشاق السفر و الطلب و تحير ماذا يقول للملك أنورشروان؛ ثم سأل من كان معه من العلماء: أ تعرفون في الهند أعلم منكم ، قالوا نعم شيخ يفضلنا علما وسنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص .قال :أما الجبال فهي العلوم .و أما الموتى فهم الجهال وأما العشب فكتاب في خزائن الملك الهند يسمى كليلة ودمنة يحيي موتى الجهل ، فأسرع برزويه إلى ملك الهند يرجو أن يطلع على الكتاب ، فاغتم الملك وقال ما طلب هذا الطلب من قبل ، ولكن لا نضن على الملك أنورشروان ، شيء وأمر أن يأتي بالكتاب، وأن يطلع برزويه عليه أمامه حتى لا يظن أحد أنه نسخه ، فإذا صح هذا الزعم ،ونحن لا نميل إلى صحته بطل الرأي السائد في ترجمة الكتاب إلى الفهلوية و فحواه أن الطبيب برزويه سمع عن الكتاب ، وهو في بلاده فاستأذن الملك أنوشروان للذهاب في سبيل استنساخه ، وقد أذن له الملك وزوده بعشرين ألف كيس في كل منها عشرة ألاف دينار ، ولقي برزويه صعوبات جمة، وعاني ضروبا من العذاب والنصب في سبيل الحصول الى الكتاب ونسخه .والمرجح أن هذه الحكايات إن هي إلا مبالغات خيالية لتعظيم وإكبار عمل الحكيم برزويه.

9–تأثير كليلة و دمنة في الأدب العربي :

أ-لقد أثر كليلة ودمنة في شعر كثيرين فننظموه شعرا، وهذه هي بعض الترجمات الشعرية ، وأسماء أصحابها .

1- ترجمة سهل بن نوبخت، وهي أول ترجمة شعرية ترجمها الشاعر يحي بن خالد ، وزير المهدي والرشيد.
2- . ترجمة أبان بن الحميد اللاحقي .
3- ترجمة علي بن داود كاتب زبيدة بنت جعفر .
4- ترجمة بشر بن المعتمر ، وقد تبع هذا في أيام الرشيد والمأمون .
5- ترجمة ابن الهبارية .
6- ترجمة ابن المماتي
7- ترجمة عبد المؤمن بن الحسن .
8- ترجمة جلال الدين النقاش.

ب- هناك من الأدباء من ألف على منواله نذكر منهم:

1- كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية.
2- كتاب سلوان المطاع في عدوان الطباع لابن عبد الله القرشي .
3- فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء لابن عربشاه.
4- رابعا كتاب القائم لأبي العلاء المعري ، وقد ذكره الحاج خليفة في كتابه كشف الظنون.

10-تأثيره في الأدب العالمي :

-نظمه أبو جعفر الرودكي، وهو أول شاعر فارسي عظيم نظم كليلة ودمنة شعرا فارسيا ، وكان شعراء عصره يشهدون له بت قدم إليهم فيقولون فيه إنه لا نظير له بين العرب؛ والعرب والعجم

- والشاعر الظريف لافونتين الفرنسي ، قد تأثر إلى حد بعيد في طائفة كبيرة من حكاياته الشعرية بكتاب كليلة ودمنة، وقد أشار إلى هذا التأثر الأدبي كثير من أدباء الغرب الذين درسوا لافونتين دراسة نقدية عميقة .

-ويثني الأستاذ جب على كليلة ودمنة ثناء طيبا مبينا أثره في الأدب الغربي حتى في زمن الأحياء، فهناك آثار لاتينية كثيرة و تراجم وتراجم إنجليزيه متعددة استمدت من هذا الكتاب . هم و شعراؤهم و قصاصوهم ، و في مقدمتهم ماسنجر الإنجليزي و لافونتين الفرنسي.[6]

وعن أثر كليلة ودمنة في الأدب العربي والآداب العالمية تقول الدكتورة نفوسة في كتابها؛ "خرافات لافونتين في الأدب العربي" أن المسلمين لم يجدوا فيه ما يصدم شعورهم الديني إذ عرفوا كلام الطير مع سليمان في القرآن

[6]-الفن القصصي عند العرب ، ص50/49.

الكريم ، ومن ثم تقبله العرب تقبلا حسنا، ثم لم تقف شهرته عند العرب وحدهم بل امتدت شرقا وغربا حتى صار بعد ضياع الأصل الهندي والترجمة الفارسية هو الأصل الذي ترجمت عنه لغات العالم، بل إن الفرس أنفسهم قد ترجموا هذا الأصل العربي إلى لغتهم عدة مرات ، ومنها ترجمة حسين واعظ كاشي المعروفة أبأنوار سهيلي التي تمت في القرن الخامس عشر الميلادي والتي ترجمها بدوره إلى الفرنسية شاهد الأصفهاني بعنوان كتاب الأنوار أو أخلاق الملوك سنة 1044 في عصر لافونتين الذي يكون من الممكن أن يكون قد اطلع عليها وتأثر بها، وبخاصة أنه في مقدمة المجموعة الثانية من خرافاته يقر بمعرفته بيدبا الحكيم الهندي المذكور في كل حكاية من حكايات ذلك الكتاب ، و باتخاذه مصدرا وخرافاته .

وتشير الباحثة نفسها إلى انتعاش قصص الحيوان نثرا وشعرا في الأدب العربي بسبب كتاب كليلة ودمنة كما هو الحال في نظم: علي ابن داوود ، وبشر بن المعتمر ، وأبي المكارم أسعد بن خاطر ، وإن كان هذا كله قد ضاع .كذلك نظمه ابن الهبارية في القرن السادس الهجري في كتاب أسماه نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة ، وابن مماتي المصري في القرن الذي بعده ، وعبد المؤمن الصاغاني في كتاب عنوانه درر الحكم من أمثال الهند والعجم، وجلال الدين النقاش؛ في القرن التاسع للهجرة .

إلى جانب قصص الحيوان؛ مؤلفه مثل شعلة وعفراء لسهل بن هارون، والصادح والباغم لابن الهبارية ، وسلوان المطاع في عدوان الطباع لابن زفر ، وفاكهة الخلفاء نهاية القرن التاسع عشر الذي سبق شوقي في هذا المزمار رغم ما يقوله مؤرخ الأدب العربي من إن أمير الشعراء إنما نحى ذلك المنحى تأثرا بالشاعر الفرنسي لافونتين بناء على ما كتبه هو نفسه في هذا السبيل وإن لم يمنع هذا أن يكون قد اطلع على ذلك التراث الأدبي عند العرب قديما وحديثا إلى جانب لافونتين الذي كان له الأثر الأقوى عليه.

رابعا :كتاب الحيوان للجاحظ[7]:

[7]- الجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر ابن محبوب الكناني الليثي من أهل البصرة ، و يعرف بالجاحظ لجحوظ عينيه ،و اشتهر بقح خلقته ، و كان جده أسود اللون جمالا لعمرو بن قلع الكنائي ، وبلغ الجاحظ من الذكاء وجودة القريحة وقوة العارضة والتفكير ما جعله من أئمة الأدب، نشأ في البصرة وهي آهله بالأدباء والنحاة وأصحاب اللغة ، ونبغ في كل ذلك ، وبلغ خبره إلى المتوكل ، وكان عازما على اختيار من يؤدب ولده في استقدمه إليه –في سر من رأى– فلما رآه استبشع منظري فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه، وله أخبار كثيرة تتعلق يقبح منظره، وأصيب في أواخر أيامه بالفرج بالفالج، فكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما أحس من شدة برده ، وكان قد اشتهر وذاع صيته في العالم الإسلامي فتقاطع الناس لمشاهدته والسماع منه ، فلا يمر أديب وعالم بالبصرة إلا طلب أن يرى الجاحظ ويكلمه وكان إذا طلب أن يراه يقول وما تصنع بشق مائل، ولعاب سائل ، ولون حائل، وتوفي بالبصرة سنة 255 هـ..وهو إمام الأدباء في العصر العباسي الثاني، وله أساليب ومذاهب وآراء في الأدب واللغة خاصة به واشتهر بطريقة في الإنشاء تنسب إليه قلده فيها الناس ، وعرفت باسمه فهو قدوة المنشئين وإمامهم في هذا العصر كما كان ابن المقفع أمامهم في العصر الأول.و الجاحظ من فضلاء المعتزلة: جماعة المفكرين في ذلك العهد تلقى العلم على أبي إسحاق إبراهيم بن نصار البلخي، المعروف بالنظام المتكلم المشهور، وكان علم الكلام قد نشأ على إثر نقل الفلسفة والتبحر فيها .وطالع الجاحظ كثيرا من كتب الفلاسفة و انفرد عن سائر المعتزلة بمسائل تابعه بها جماعة عرفوا الجاحظية ، ومن مذهبه أن المعارف كلها ضرورية ، وليس فيها شيء من أفعال العباد ، وإنما هي طبيعية وليس للعباد كسب سوى الإرادة ، وأن العباد لا يخلدون في النار ، وأن الله لا يدخل أحدا في النار ، وإنما النار تجذب أهلها بنفسها وطبيعتها .وأن الله لا يريد المعاصي ولا يريد ؛بمعنى أنه لا يغلط ولا يصح في حقه يستحيل يستحيل على الجواهر من الأجسام و، إنما الأعراض تتبدل والجوهر باق، ونحو ذلك.

مؤلفاته:

خلف الجاحظ مؤلفات عدة ، طبع ونشر كثير منها وهاك أهمها :

–كتاب البيان والتبيين في الأدب والإنشاء ، أاحاث في البيان والخطاب والخطباء والسجع والشعر والشعراء و النساك والزهاد ، وأمثلة من خطب النبي والخلفاء ، وفي اللحن واللحن ، وأحاديث ونوادر، وغير ذلك وهو أصدق مثال للإنشاء في أواسط القرن الثالث للهجرة ، وقد طبع بمصر سنة 1313.

–كتاب الحيوان هو أقدم كتاب في علم الحيوان بالعربية ، ويختلف عن كتب الحيوان المعروفة بأنه يشتمل على وصف طبائع الحيوانات من حيث علاقتها بالناس ويتخلل ذلك فوائد أدبية واجتماعية وتاريخية وقد طبعه مصر سنه سنه 1906 في سبع مجلدات.

–كتاب المحاسن والأضداد والعجائب والغرائب في اللغة طبعه المستشرق فان فلوتن في لبن سنة 1898 في 400 صفحة ثم طبع بمصر سنة 1906

–كتاب البخلاء في الأدب طبع غير مرة في أوروبا ومصر.

–كتاب سحر البيان –كتاب فضائل الأتراك –كتاب سلوة الحريف في المناظرة بين الربيع والخريف –كتاب العرافه والزجر والفراسة –كتاب المختار من كلامه الجاحظ وحكم علي رساله بني أمية و– كتاب ثلاث رسائل كتاب طبقات المغنيين –وكتاب التاج.نقلا عن جورجي زيدان :تاريخ آداب اللغة العربية ج 2، موفم للنشر الجزائر من صاح 294 الى 297

كان الجاحظ قارئا ممتازا كما كان كاتبا ممتازا ، فحياته عاشها في عالم الكتب بأدق معنى لهذه العبارة لا يكاد يبتعد عن الكتاب قارئا إلا لينشر أوراقه كاتبا ، وكان من حسن حظه أن قامت حركة الترجمة عن الثقافات الأخرى بالرغم انه الذكر لنا عن الحركة الترجمة هذه ما يدل على ريبته في تمام نفعها كما أوردنا، ففي كتابه الحيوان وغيره ترد أسماء أعلام الفكر الأجنبي من أمثال أرسطو ، وأفلاطون ، وأبو قراط، وبطليموس، وجالينوس بل إن مادة كتابه الخاصة بالحيوان نفسه تجد من الدارسين من يظن أنها مأخوذة في قدر كبير منها من أرسطو[8]

كتاب الحيوان: يقع في سبعة مجلدات امتلأت صفحاته بما يقطع لما كان لهذا الرجل من اطلاع واسع وتنوع في الاهتمام كأنما كان كل معرفة عنده واجبة التحصيل جديرة بالحفظ ، وبالرغم من ان معظم حديثه في هذا السفر الموسوعي –بالطبع –عن صنوف الحيوان إلا أنه قد تخللته من صنوف المعارف الأخرى ما يمكن أن يضم بعضه إلى بعض فيكون صورة فكرية تشفي عن وجهة نظره .[9]لكن هذا هو الكتاب أغلبه عن الحيوان، لكن تناثرت في غضونه وقفات فكرية كثيرة جدا عن مختلف الموضوعات بغير تحديد شأن التأليف في منهج العرب الأقدمين. يرسل الحديثة إرسالا ، وكان يسمر مع أصدقائه، فهناك موضوع رئيسي لكن هذا الموضوع الرئيسي لا يحول دون الاستطراد وراء كل فكرة تلمع على الطريق. [10]

ميزة الكتاب:

يعد أول كتاب جامع وضع في العربية في علم الحيوان، لأن من كتبوا قبل الجاحظ في هذا المجال أمثال الأصمعي ، وأبي عبيدة، وابن الكلبي، وابن الأعرابي ، و السجتاني، وغيرهم كانوا يتناولون حيوانا واحدا ، وكان اهتمامهم لغويا وليس علميا ، ولكن الجاحظ اهتم إلى جانب اللغة والشعر بالبحث في طبائع الحيوان وغرائزه وأحواله وعاداته، ويعد كتاب الحيوان أضخم كتب الجاحظ إطلاقا، ويعد دائرة معارف واسعة الأفق، ويعد صوره بارزه لثقافة العصر العباسي المتشبع الأطراف، فقد احتوى على المعارف الطبيعية، والمسائل الفقهية ، وتحدث في سياسة الاقوام ، وتكلم عن سائر الطوائف الدينية ، وتحدث عن الكثير من المسائل الجغرافية .وفي خصائص كثير من البلدان ، وفي تأثير البيئة في الحيوان ، والإنسان ، والشجر، وتكلم على الطب ، وعلى

---

[8]- نقلا عن زكي نجيب محمود المعقول واللامعقول في تراثنا ص 172 173

[9]المرجع نفسه ص 172-

[10]- المرجع نفسه ص 165 166

الأمراض في الحيوان، و في الإنسان، وذكر كثيرا من المفردات الطبية النباتية والحيوانية والمعدنية .وقد أورد أبيات مختارة من الشعر العربي النادر بالإضافة للأمثال السائرة ، والنوادر الطريفة.وعرفه بقوله :"هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم لأنه وان كان عربيا إسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع ، وعلم التجربة، وأشرك بين علمي الكتاب والسنة وجدان الحاسة ، وإحساس الغريزة ، يشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ".

لماذا سماه بالحيوان:

سماه الحيوان لأنه تتبع ما في الحيوان ما في حياتي الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته النادرة قال:" وكانت العادة في كتب الحيوان أن نجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار لما ذكرت من عجبك بذلك، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله تعالى" ، إلى أن قال "وإن كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير لما طال و كثر أصلح وما غايتنا إلا تستفيدوا خيرا ".

مصادره :

اعتمد الجاحظ في كتابه على مصادر عديدة، فقد رجع إلى القرآن ، وفيه الكثير عن الحيوان ، وبعض سور سميت بأسماء بعض الحيوانات، ومنها البقرة ، والعنكبوت ، والنمل ، والأنعام ، والفيل .كما رجع إلى الشعر العربي لأن العرب كما يقول قد ثقفوا معرفة الحيوان، وبرعوا في ذلك براعة فائقة، و قل معنى سمع في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة والمتكلمين إلا وهو ، أو قريب منه في أشعار العرب"[11]

كما اعتمد على كتاب الحيوان لأرسطو الذي نقله إلى العربية ابن البطريق في عصر الجاحظ. بالإضافة إلى خبرة الجاحظ الطويلة في الحياة، وممارسة ظروفها وأحوالها ، و مما اكتسبه بنفسه ، أو سمعه من الأعراب.

منهجه:

لما كان الجاحظ يملي على الناس روح عصره، فهو ينقل ما يتعارفون بينهم ثم يطرح رأيه إن كان له ذلك الرأي ، فهو يشير للدلالة الرمزية للحيوان عند العرب ، فيقول " والعرب إنما كانت تسمي بكلب ، وحمار، وحجر، وجعل، و حنظلة ، وقرد على التفاءل، وكان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير و الفال فإن سمع إنسانا يقول حجرا أو رأى حجرا سمى ابنه به و تفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر ، وانه يحطم

---

[11]- الجاحظ الحيوان ج3 ،صفحه 321

ما لقي ، وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا تناول فيه الفطنة، والخبث، والمكر، والكسب وإن كان حمارا فيه تأول فيه طول العمر والوقاحة، والقوة ، والجلد. وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة ، واليقظة ، وبعد الصوت والكسب وغير ذلك..." [12].ومثلما يتخيرون لأبنائهم أسماء ذات دلالة رمزية فإنهم يتخيرون لحيواناتهم أسماء ذات دلالة رمزية أيضا إلا أن البعض لا يحسن الاختيار ، قال الشاعر و رأى رجلا اسمه وثاب واسمه كلبه عمرو، قال:

ولو هيأ له الله من التوفيق أسبابا

سمى نفسه عمرا وسمى الكلب و ثابا [13]

و لطول التجربة الإنسانية مع الحيوانصار لكل جنس من الحيوانات صفة يعرف بها ، وصار الإنسان يقرن بتلك الصفة بذلك الجنس فيقال " أجرأ من الليث، وأجبن من الصقر ، و أسخى من لافظة ، و أصبر على الهون من كلب، واحذر عقعق ، وأزهى من غراب، واصنع من سرقة ، و أظلم من حية ، و اعذر من ذئب، وأخبث من ذئب ، وأشد عداوة من عقرب ، وأروغ من عقرب ، و أروغ من ثعلب، و أحمق من حبارى ، و أهدى من قطاة ، وأكذب من فاختة ، و أعق من ضب ، و أبر من هره..." [14] .

نماذج من الكتاب:

وللننقل من كتابه عن الحيوان نموذجا واحدا ، وليكن مختارا نقتبسه مما قاله الجاحظ في جزئيه الأول والثاني من كتاب الحيوان عن الكلب والديك، يقول شارل بلا في كتابه عن الجاحظ أنه قد قصد بحديثه الطويل المستفيض عن الموازنه بين الكلب والديك رمزا يشير به إلى رجلين معينين من رجال عصره ، و إني لأرجح هذا الرأي ترجيحا شديدا على أي حال ، فهناك بضعة أسطر مما قاله في الكلب، وما قاله في الديك مع ملاحظ أنه جعل المناظرة وكأنها تدور بين شيخين من شيوخ المعتزلة أحدهما والآخر يدافع عن الكلب والآخر يدافع عن الديك مما يرجح لنا أن الكلام كله رمز لما لست أعلمه من شؤون عصره.

---

[12]الحيوان ج1،ص 324.

[13]- الجاحظ الحيوان جيم اثنين 194

[14]- الجاحظ الحيوان ج1، 220 221

هاك نبذة قصيرة مما يقوله في الكلب " فيه خليط من طباع السباع التي تأكل اللحوم ، ومن طبائع البهائم كإلفه لانسان غير أنه إذا سمن فقد يهاجم صاحبه، وفي المثل سمن كلبك يأكلك، وهو حارس محترس منه ومؤنس شديد الإيجاش من نفسه وأليف كثير الخيانةعلى إلفه ، و إنما اقتنوه على أن ينذرهم بموضع السارق، وهو أسرق من كل سارق ، فهو سارق ، وهو نباش، وآكل لحوم الناس إلا أنه يجمع سرقة الليل مع سرقة النهار ، ثم لا تجده أبدا يمشي في خزانة أو مطبخ أو عرصة الدار، أو في طريق ، أو في براري ،أاو في ظهر جبل ، أو في بطن واد إلا و خطمه في الأرض، يتشمم ويستروح ، وإن كانت الأرض بيضاء حصاء حرصا و جشعا وشرها وطمعا ، نعم حتى لا تجده أيضا يرى كلبا إلا واشتم استه، ولا يتشمم غيرها منه لأنه لما كان لا يكاد يأكل إلا شيئا رموا به إليه صار ينسى لفرط شرهه وغلبت الجشع على طبعه. إن الرامي أراد عقره أو قتله ، فيظن لذلك انه إنما أراد إطعامه والإحسان إليه " الجاحظ الحيوان ، ج 1 ،ص 193

والكلب على ما فيه يعرف صاحبه وهو السنور يعرفان أسمائهما ويأفان موضعهما ، وان طرد رجعا و إن إجيعا صبرا صبرا ، و إن أهينا احتملا، وفي العبارة الموجزة التالية نقدم نموذجا لما يقول عن الديك " وخلاصة القول فيه أنه ليس يطرب بصوته ، ولا مما يمتع الأبصار حسنهه ، و لا هو مما يطير، فهو طائر لا يطير ، وبهيمة لا يصيد ولا هو مما يكون صيدا فيمتع من هذه الجهة، والديك لا يألف منزله ، ولا يحن إلى ولده، وهو الله لا يعرف أهل داره ، ومبهوت لا يثبت وجه صاحبه."

أبعاد الكتاب :

البعد الأسطوري:

وفيه تمتزج الحقيقة التاريخية بالخيال والخرافة ، ويكون مجال رحب لتوظيف المتن الأسطوري ويمنح دلالته الرمزية إلى النص الموظف فيه ، ولعل الجاحظ يسفه أحيانا بعض هذه الأساطير ، ويضعف بعضها أحيانا أخرى. وضع الجاحظ يده على كنز من أساطير العرب من خلال ما وصل إليه من كتب، فهو لا يترك كتابا وقع بين يديه إلا استوفى قراءته حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ، ويبيت فيه للنظر" [15].

ومن بين هذه الأساطير التي نجدها في كتاب الحيوان ما يقوله الناس في الإبل "أن فيها عرقا من صفات الجن ، وذهبوا إلى الحديث أنهم كرهوا الصلاة في أعطان الإبل، لأنها خلقت من أعنان الشياطين، وزعم ناس من الإبل وحشيا ، وكذلك الخيل فزعموا أن تلك الإبل تسكن أرضا وبارا، وقال آخرون هذه الإبل هي الحوش وهي

---

[15]-" معجم الادباء 16 75

من بقايا إبل وبار، فلما أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل: عاد ، وثمود، والعمالقة ، وطسم وجديس .فبقيت إبلهم في أماكنها لا يطورها انسي فان سقط إلى تلك الجيزه بعض الخلعاء ، أو بعض من أضل الطريق حثت الجن في وجهه فان ألح خبلته[16] ، وهكذا فإن الإبل الوحشية من بقايا الأقوام التي أهلكها الله والتي تحرسها الجن غير الوحشية فإنها من سفاد الجن .

البعد الديني :

وفيه يوظف الجاحظ الإمام المعتزلي الثقافة الاسلاميه و الدينية والتاريخية في نصوصه ويبث الكثير من معتقداته من خلال أدبه ، ومثلما وقف من الأساطير كان له موقف من آراء المفسرين الذين جانبوا الصواب فيسخر ، ويهزأ ، وينكر ما يخالف العقل.

البعد الاجتماعي:

وفيه يوظف ما تعارف عليه المجتمع من رؤية للحيوان بأمثالهم وأحاديثهم ، وفيه ينهل من حياة اجتماعية بصرية تشتبك فيها العروق من عرب وفرس ، و زنوج، و أفارقه .لأن البصرة نشأت عجوزا ناضجة مكتملة تصطرع فيها العقائد والأفكار، وكان الخوارج على أطرافها، وفيها التشيع ، والاعتزال، والسنة ، والطوائف، والأديان الأخرى، و أهل الشك والمجون والصناديق ، وفيها الترف والنعيم لدى الخاصة والفقر والشقاء لدى العامة فكثر الرقيق والجواري ، وشاع الغناء و ذاع اللهو .... وهذا كله انعكس في أدب الجاحظ فنرى أنه أخذ في توظيفه في الرمز الحيواني فصار أكبر حجما من البعدين الأسطوري والديني .[17]

[161616]-الجاحظ : ج1، ص154.

[17]- جاسم شاهين كاظم : الرمز الحيواني في أدب الجاحظ.